SİİRT ÜNİVERSİTESİ İLAHİYAT FAKÜLTESİ DERGİSİ • CİLT: 4 • SAYI 2 • **s. 13-38**

منهج ابن بسام في كتابه (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)

Ousama EKHTIAR*
Khaled KHALED**

İbn Bessâm eş-Şenterînî'nin "ez-Zehîre fî Mehâsini'l-Cezîre" Adlı Eserindeki Metodu

Özet

İbn Bessâm eş-Şenterînî, Endülüs Arap edebiyatı ile ilgili çalışma yapan alimlerin en önemlilerindendir. İbn Bessâm'ı, Endülüs edebiyatını ele alanların en değerlisi olduğunu ve onu ölümsüzleştirdiğini söylemek abartı olmaz. Onu Endülüs edebiyatını ele almaya iten neden, Endülüs ulemâsının Endülüs'ten yüz çevirip doğu edebiyatına rağbet etmeleri, doğunun edebi üstünlüğünün ön kabulü ve edebi üstünlüğü adeta doğu edebiyatına hasretmelerine karşı tepkisidir. Onun ez-*Zahîre* adlı eseri, Arap edebiyatında zuhur eden ve henüz bitmeyen doğu-batı problematiğini ortaya koymayı hedeflemektedir. İbn Bessâm, kendisini böyle bir tartışmanın içerisinde bulmuş, görüşleriyle bu tartışmaya katılmak için söz konusu eserini kaleme almıştır. İbn Bessâm, eserini telif etmekle Endülüs şair ve yazarlarını ölümsüzleştirmeyi de hedeflemiştir.

* Prof. Dr., Bingöl Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Fakültesi,Temel Islam Bilimleri Bölümü, Arap Dili Ve Belâğeti Anabilimdalı, [ousama967@gmail.com].

** Öğrt. Gör., Siirt Üniversitesi İlahiyat Fakültesi [siamndo1@hotmail.com].

Bu çalışmada, İbn Bessâm'ın ez-Zahîre adlı eserinde takip ettiği ilmi metod tespit edilmeye çalışılmıştır. Bu bağlamda İbn Bessâm'ın eserindeki ilmi şahsiyeti ortaya konulmaya gayret edilmiş, ulaşılan önemli sonuçlara makalenin sonunda yer verilmiştir.

Anahtar Kelimeler
İbn Bessâm eş-Şentenîrî, Endülüs Edebiyatı, Terâcim, Edebî tenkit.

The Ibn Bessâm al-Sha'ernînî and method of his work "ez-Zehîre fî Mehâsini'l-Cezîre"

Abstract

Ibn Bessâm al-Senterini is one of the most important scholars who work on the study of Andalusian Arabic literature. It is no exaggeration to say that Ibn Bessam is the most valuable of those who work on Andalusian literatüre. The reason why it prompted him to deal with Andalusian literature is that the Andalusian's scholar cut off from Andalusian literatüre. Ez-Zahîre – his work- is aiming to reveal the eastern-western problem in Arabic literatüre. Ibn Bessam found himself in such a controversy and received his work in order to participate in this debate with his views. Ibn Bessam also aimed at immortalizing Andalusian poets and writers by his work.

In this study, it was tried to determine the scientific method of Ibn Bessam in his work ez-Zahîre. In this context, efforts have been made to reveal the scientific personality of Ibn Bessâm's in his work and important conclusions reached in finally article.

Key words
Ibn Bessâm al-Shintenîrî, Andalusian literature, Terâcim, literary criticism

تمهيد:

يعدُّ ابنُ بسّام الشّنتريني من أهم علماء عصره الذين تصدَّوا لدراسة الأدب العربي في الأندلس, ولسنا نبالغ إذا قلنا: إنَّ ابن بسَّام أهمُّ مَنْ تناولَ أدبَ الأندلسِ وخلّدَ مَنَاقبَه, دَفَعَهُ إلى ذلك يراعٌ غيورٌ آلمَهُ انصرافُ الأندلسيّين عن أدبهم وانشغالُهُم بآداب المشارقة, إضافة إلى تفضيلِهم له وتقديسِهم إياه ، كأنّه حازَ الفضلَ كلّهُ، حتى ما ترك لأهل المغرب شيئاً, وقد أثار هذا الكتاب إشكالية جدلية الشرق والغرب التي نشأت في الأدب العربيّ ولمَّا تنته, وكان ابنُ بسامٍ في خضمّ هذه الجدليّة، وشارك برأيه فيها, ولذلك خطَّ ابنُ بسّام كتَابَه، حملَهُ على

ذلك رغبتُه في أن يخلِّد مآثرَ شعراءِ الأندلس وكتّابها في كتاب سمَّاه: (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة).

يهتم هذا البحث بمنهج المؤلف في ذلك الكتاب, لمعرفة الخطوط العريضة التي رسمها له، وذلك من خلال استقرائنا لمنهجه العلمي, ونهدف من خلال هذا البحث إلى استقصاء الشخصية العلمية لابن بسام في كتابه, وتتناول هذه المقالة منهج ابن بسام في (الذخيرة) درساً وتحليلاً؛ وقد توصَّلْنا إلى نتائج مهمة في هذا الصدد أثبتناها في آخر البحث، وتلك النتائج ترسم لنا صورة واضحة للهدف والمنهج اللذين وضع عليهما ابن بسام كتابه قاصدا به التأريخَ للأدب العربي في الأندلس.

الكلمات المفتاحية: ابن بسام الشّنتريني, الأدب الأندلسي, منهج تراجم الأعلام، النقد في الأندلس.

ترجمة ابن بسام:

يحارُ الدَّارِسُ عندما يقفُ أمام كتاب الذخيرة, فيجدُ هذا الاهتمامَ العظيمَ من ابن بسَّام بالأدباء, ثم يلتفت في الاتجاهات كافَّةً باحثاً في بطون الكتبِ عن ذكرٍ يفي هذا الرَّجلَ –أعني ابنَ بسّام– حقَّهُ, فلا يجدُ ما يَشْفي الغليلَ, بل يكادُ يكونُ نكرةً في كتب التراجم وهو مَنْ هو في علمه وصنعته الأدبية, ولعلَّ أهم من ترجم له هو ابن سعيد المغربي الذي نراه يُعلي من شأن ابن بسام ناقداً وأديباً, و يتحدَّثُ عن غيرته على أدب الأندلس, ويذكر بعضاً من شعره ويشير إلى أنَّ نثرَه أعظمُ من شعره[1], هذا كلُّ ما ذكره ابنُ سعيد عنه, ويُلاحظ أنّه لم يتطرق إلى مراحلِ حياته العلمية, فلم يذكر بداياته في طلب العلم, ولم يذكر البيئةَ التي حصّلَ فيها علمَه، ولا عمّن تلقاه, ولا شيئاً من أخباره, إنه باختصار عَرَفَه وعرَّفَه من طريق كتابه (الذخيرة), نلمس ذلك أيضاً في كتابه الآخر (رايات المبرّزين وغايات المميَّزين), فهو على كثرة نقوله عن ابن بسَّام لا يعدو أن يقول فيه – بعد أن ينعته بالرئيس والأديب والمؤرّخ – « أبو الحسن علي بن بسَّام صاحب كتاب الذخيرة كان مستوطناً إشبيلية وأظنّه منها «[2].

أمَّا الْمَقَّرِيُّ صاحبُ (نفح الطِّيب) فعلى كثرة ما نقلَ عن ابن بسّام فإنّه يكتفي بقوله عنه:''

1 ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى (ت 685هـ), **المغرب في حلى المغرب**, تحقيق الدكتور شوق ضيف, دار المعارف, ط3, القاهرة1955. 1/ -417 418.

2 ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى (ت 685هـ), رايات المبرزين وغايات المميّزين, تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية, دار طلاس, دمشق 1978. 62

أبو الحسن علي بن بسَّام الشنتينيُّ صاحب الذخيرة, وشهرتُه تغني عن ذكره, ونظمه دون نثره... وتأخَّرت وفاته إلى سنة اثنتين وأربعين وخمسمئة للهجرة, وهو منسوب إلى شنترين من الكور الغربية البحرية من أعمال بطليوس"[3].

كانت هذه ترجمته في الكتب القديمة, ولم تزد عليها كتب التراجم الحديثة, إلا بعضاً من الاستنتاجات اليسيرة تلقفتها من ذخيرته هنا وهناك[4].

منهجه في الكتاب:

انطلق ابن بسام في منهجه في كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) من حِرصٍ على أدب الأندلس، إذ غاظه ما يصنع الأندلسيون من تقديس لأهل المشرق العربي، في الوقت الذي تملك الأندلسُ برأيه من الأدب ورجاله ما يضاهي أدب المشرق ورجاله, يقول ابنُ بسام واصفاً ذلك:"إلّا أن أهل هذا الأفقِ، أَبَوا إلَّا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوعَ الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أوطنَّ بأقصى الشام والعراق ذبابٌ لجثوا على هذا صنماً وتَلَوا ذلك كتاباً محكماً... فغاظني منهم ذلك، وأنِفتُ مما هنالك"[5].

فراح يجلو الغبار عن أدب يراه يضاهي أدب المشرق العربي بجودته وحسنه وجمال رونقه، وراح يتفنّنُ في وصفه وذكر ما له من مزايا جميلة, وكأنّي به يحاولُ إعطاء أدب الأندلس وأهله شُحنَةً تزيدهم ثقةً بنتاجهم الأدبي, يقول في ذلك: « فإن ثمرة هذا الأدب، العالي الرُّتب، رسالةٌ تُنثَر وتُرسَل، وأبياتٌ تُنظَمُ وتُفصَل، تنثال تلك انثيال القطار على صفحات الأزهار، وتتّصل هذه اتّصال القلائد، على نحور الخرائد، ومازال في أفقنا هذا الأندلسي القصيّ إلى

3 المقّري، أحمد بن محمد التلمساني, **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**, تحقيق إحسان عباس, دار صادر, بيروت1968. 3/ 458

4 **للمزيد حول ترجمته ينظر:** الزركلي، خيرالدين, **الأعلام**, ط15, دار العلم للملايين, 2002م. 4: 266, **و** مكي, الطاهر احمد, **دراسة في مصادر الأدب**, دار الفكر العربي, ط8, القاهرة 1999م. ص318, و عبد الرحمن البرقوقي, **مجلة الرسالة**, القاهرة, سنة 1936, عدد 138, ص27, و كحالة, عمر, **معجم المؤلفين**, دار إحياء التراث العربي, مكتبة المثنى, بيروت. 7 /43, وابن محمد, علي, **ابن بسام الأندلسي وكتابه الذخيرة دراسة في حياة الرجل وأهمّ جوانب الكتاب**, **المؤسسة الوطنية للكتاب**, الجزائر 1989م, ودار الغرب الإسلامي, بيروت، 25-62. وقد ذكرت جميع تلك الجهود قديماً وحديثاً في الفصل الأول من رسالتي في الدكتوراه التي أعدُّها في جامعة بينغول بإشراف أستاذي (Prof. Dr. Ousama EKHTIAR).

5 ابن بسام، علي بن بسام الشنتريني (ت 542هـ), **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**, تحقيق الدكتور إحسان عباس, دار الثقافة, بيروت 1997م, ق 1/مج1 / ص12

وقتنا هذا من فُرسان الفنين، وأئمة النّوعين، قومٌ هُم ما هم طيبَ مكاسِر، وصفاءَ جواهِر، وعذوبةَ مواردَ ومصادِرَ.... نثرٌ لو رآهُ البديع[6] لنسي اسمَه...، ونظمٌ لو سمعه كُثيّرٌ[7] ما نسبَ ولا مدَحَ...''[8]

وتلك الإغاظة منهم وهذا الحرص عليهم، دفعاه إلى تأليف كتابه هذا الذي صنعه وفق خطوطٍ عامة سار عليها، حتى اكتمل على شكله الذي بين أيدينا، وتوضَّح منهجُه فيه، إذ سيتبين لدينا أنَّه سار على منهجٍ ارتضاهُ لنفسه في تأليف كتابه هذا، وسيحاولُ البحثُ فيما يأتي أن يتتبع منهج ابن بسَّام في كتابه ليصل إلى خيوطٍ تربُط بين مُكوّنات هذا المنهج مُعوّلاً على مُقدَّمة ابن بسَّام نفسِه في الكتاب, مبيّناً مدى التزامه ما رامه في تلك المقدمة, مشفّعاً كلَّ ذلك بالأمثلة المؤيّدة.

أ. منهجُهُ من حيثُ الزمانُ والمكانُ:

إنّ تحديد الإطارين الزمني والمكاني لأي عملٍ من مؤشّرات نجاح ذلك العمل وتميّزه, ولذلك فإن ابن بَسَّام يشيرُ بوضوحٍ إلى الزمن الذي سيدرسُ في إطارِه الأدبَ، وكذلك يشيرُ إلى المساحة المكانية يقول'' وأخَذتُ بنفسي بجمع ما وجدتُ من حسنات دهري، وتتبُّع محاسن أهل بلدي وعصري''[9].

ودقّةُ التزامه الناحيتين الزمانيةَ والمكانيةَ لها أسبابها, فلا يُمكنُ أن يكون صنيعُه هذا من عبث، فقد كانت نفسُه تلتهبُ غيرةً، وقلمُهُ يمضي قوةً، فيسوّغُ مبالغته بذلك الالتزام بأنّه كان «غيرةً لهذا الأفق الغريب أن تعودَ بُدُرُهُ أهلَّةً، وتُصبحَ بحارُهُ ثماداً مُضْمَحلَّةً، مع كَثْرة أُدبائه، ووفور علمائه، وقديماً ضيَّعوا العلم وأهلَهُ، ويا رُبَّ مُحسنٍ مات إحسانُه قَبْلَه''[10].

6 أراد بديع الزمان الهمذاني، صاحب المقامات, واسمه أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بديع الزمان الهمذاني أبو الفضل, سكن هراة, وكان أحد الفضلاء والفصحاء, توفي سنة ثمان وتسعين وثلاثمئة, كان سريع الخاطر شريف الطبع صافي الذهن قويّ النفس. ينظر: الحموي, ياقوت, معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب, تحقيق إحسان عباس, دار الغرب الإسلامي, بيروت 1993. ج1/ص234-253.

7 أراد كُثَيّر عزة الشاعر المشهور, وهو أبو صخر كثير بن عبدالرحمن بن أبي جمعة الأسود بن عامر بن عويمر الخزاعي, أحد عشاق العرب المشهورين, صاحبُ عزة بنت جميل, وكُثَيّر تصغير كثير, صغّر لأنه كان حقيراً شديد القصر توفي سنة خمس ومئة. ينظر ابن خلكان, أحمد بن محمد بن أبي بكر, وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان, تحقيق إحسان عباس, دار صادر بيروت. ج4/ص106-113

8 ابن بسام الشنتريني, الذخيرة, ق1/مج1/ص11

9 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص12

10 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص12

ثمَّ نراهُ يُلجِمُ غيرتَه، ويُكَفْكِف قلمَهُ عن تجاوز زمنه وعصره، ليتحدَّد بذلك منهجُهُ من حيث الزمن والعصرُ، يقول‘‘:ولم أعْرِض لشيءٍ من أشعار الدَّولة المروانية، ولا المدائح العامريَّة، إذ كان ابنُ فرج الجيَّاني قد رأى رأيي في النَّصَفَة، وذهب مذهبي من الأنفة، فَأَمْلَى في محاسِ أهل زمانه (كتاب الحدائق) مُعارِضاً (كتابَ الزّهرة) للأصبهاني، فأضَرَبْتُ أنا عمَّا أَلَّف، ولم أعْرِضْ لشيءٍ ممَّا صنَّف، ولا تعدَّيتُ أهلَ عصري، ممَّن شاهدْتُه بعمري، أو لحقَهُ بعضُ أهل دهري‘‘[11]، ويتحدَّدُ منهجُه أكثر حين يُعلّل صَفْحَهُ عن الخوض في أهل العصور السابقة لعصره، يقول‘‘ إذ كُلُّ مُردَّدٍ ثقيل، وكُلُّ مُتَكَرَّرٍ مملول، وقدْ مَجَّتِ الأسماعُ[12]:

يا دارَ ميَّة بالعلياء فالسند.

وملَّت الطِّباعُ[13]:

لخولةَ أطلالٌ ببُرْقة ثَهْمَد.

ومجَّت[14]:

قِفَا نبك

في يد المُتعلّمين، ورجعَتْ على ابن حُجرٍ بلائمة المتكلّفين، فأمَّا[15]:

أمِن أمّ أوفى

فعلى آثار مَن ذهبَ العفا, أما آن أن يصَمَّ صداها, ويُسْأَمَ مداها‘‘[16].

وليس صنيعُ ابن بسَّام في كُلِّ هذا لتفضيلِ عصرٍ على عصرٍ، تقدَّم أو تأخرَّ، فـ «الإحسانُ غيرُ محصورٍ، وليس الفضلُ على زمن بمقصورٍ، وعزيزٌ على الفضل أن يُنكَر، تقدَّم به الزمانُ أو

11 , **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص12

12 النابغة الذبياني زياد بن معاوية بن ضباب, **ديوانه**, تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم, دار المعارف, ط2, القاهرة، ص14, وتمام البيت: أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأبدِ

13 طرفة, **ديوانه**, بشرح الأعلم الشنتمري, تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقّال, إدارة الثقافة والفنون بالبحرين, المؤسسة العربية ببيروت, ط2, 2000م، ص23, وتمام البيت: تلوحُ كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

14 امرؤ القيس, **ديوانه**, تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم, دار المعارف, ط5, القاهرة. ص8, والبيت بتمامه:

قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدَّخول فحومل

15 زهير بن أبي سلمى, **ديوانه**, بشرح الأعلم الشنتمري, تحقيق علي حسن فاعور, دار الكتب العلمية, ط1, بيروت 1988م، ص102. والبيت بتمامه:

أمن أمّ أوفى دِمنةٌ لم تكلَّم بحومانة الدّرّاج فالمتثَلَّمِ

16 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص13

تأخَّر، ولحى الله قولهم: الفضلُ للمتقدّم، فكم دفنَ من إحسان، وأخملَ من فلان، ولو اقتصرَ المتأخّرون على كتب المتقدّمين، لضاعَ علْمٌ كثيرٌ، وذهب أدبٌ غزير"[17].

يُحدّدُ المدَّة الزمنية التي درس فيها الأدب الأندلسي بالقرن الخامس الهجري، و يؤكّدُ على هذه الفترة في غير موضع، فنراه يشيرإلى ذلك حتى في تضاعيف ذكره لأهل الأقاليم غير الأندلسية التي ضمَّن شعراءَهم في كتابه كإفريقيا والشام والعراق، يقول": والقسمُ الرابع: أفرْدته لمن طرأ على هذه الجزيرة في المُدَّة المؤرَّخة من أديب....، ووصلتُ بهم ذِكْرَ طائفة من مشهوري أهل تلك الآفاق ممَّن نجم في عصرنا بإفريقية والشام والعراق"[18] وهذا يدلُّ دلالة كبيرة على انَّه كان يخطُّ لنفسه منهجاً واضحاً يسير عليه في كتابه, وقد بين منهجَه من حيث المكانُ في مُقدَّمته، يقول" وقَسَمْتُه أربعة أَقْسام:

القسم الأول: لأهل حضرة قرطبة وما يُصاقبها من بلاد موسطة الأندلس، ويشملُ من الأخبار وأسماء الرّؤساء وأعيان الكُتَّاب والشعراء على جماعَة.

والقسم الثاني: لأهل الجانب الغربي من الأندلس، وذِكْرِ أهلِ حضرة إشبيلية، وما اتَّصل بها من بلاد ساحلِ البحر المحيط الرّومي، وفيه من الأخبار وأسماء الرُّؤساء وأعيان الكُتَّابِ والشُّعراءِ جملةٌ موفورةٌ.

والقسم الثالث: ذكرْتُ فيه أهل الجانب الشَّرقيَ يَّ من الأندلس، ومَنْ نَجَمَ من كواكب العصر في أفق ذلك الثَّغر الأعلى، إلى منتهى كلمةِ الإسلام هُنالِكَ، وفيه منَ القِصَصِ وأسماء الرُّؤساء وأعيان الكتَّاب والشعراء طوائفُ.

والقسم الرابع: أَفْرَدْتُه لمن طَرَأَ على هذه الجزيرة في المُدّة المؤرّخة من أديبٍ وشاعر، وأوى إلى ظِلّها من كاتبٍ ماهرٍ، واتَّسع فيها مجالُه، وحُفظت في ملوكِها أقوالُه، وَوَصَلْتُ بهم ذِكْرَ طائفة من مشهوري أهل تلك الآفاق، ممّن نجَمَ في عصرنا بإفريقية والشام والعراق"[19]

والأقسام الثلاثة الأولى تتضمَّن أقاليمَ أندلسيَّةً بكلّ وضوح، فيسيرُ ابن بسام بذلك في إطارٍ مكاني مُحدَّدٍ يشمل أقاليم الأندلس التي أَلَّفَ الكتابَ لأجلها. أمَّا القسمُ الرَّابعُ الذي خصَّصَهُ لأهل إفريقيا والشام والعراق، فإنَّه يخرُج فيه من هذا الإطار، ليتركَ تساؤلاً عن السبب الذي دفع ابن بسَّام لذلك، لكنَّه سُرعان ما يجيب عن التساؤل، ليُبدّدَ الحيرة فيه، يقول: « وإنَّما ذكرْتُ هؤلاءِ ائْتِسَاءً بأبي منصورٍ، في تأليفِه المشهور، المترجم بـ(يتيمةِ الدَّهر في محاسن أهل

17 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص13-14

18 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص29

19 ابن بسام الشنتريني, الذخيرة, ق1/مج1/ص22-30

العصر)"[20]، ويؤكّدُ ذلك أيضاً في بداية تناوله للقسم الرابع حيث يقول" وقدْ أثبتت أيضاً آخرَ هذا القسم طرفاً من كلام أهل المشرق، وإن كانوا لم يطْرَؤوا على هذا الأفق، حذوَ أبي منصور الثعالبي، فإنَّهُ ذكرَ في يتيمته نفراً من أهل الأندلس فعارضْته أو ناقضتُه، والأدب ميدان يليق به المِتاح، ويُستحسَنُ فيه الجِماح"[21], فكأنَّ ابن بسَّام يرُدُّ الإحسان إحساناً، أو كأنَّه يُباري المشارقة حتى في الإحسان.

هذا فيما يخصُّ أهلَ المشرق (الشام والعراق)، أمّا أهل إفريقيا الذين وفدوا على الأندلس، واستوطنوها حتَّى عُدُّوا من أهلها فإن ابن بسام لم يجد حرجاً من التصدّي لأدبهم شعراً ونثراً، فنراه يُصرّح بذلك ويُعلّلُهُ، قائلاً" ولم آت بهذه الفرقة من أرباب هذا الفنِ! الذي أنا في إقامة أوده، مُتعزّزاً من ذلَّة، ولا مُستكثراً من قلَّة، ولا لأنّي لم أجد من أعيان وزرائنا وكُتَّابنا مَنْ هو أبعدُ غايةً ولا أبهرُ آيةً، ولكنَّهم أُسْندوا إلى أعلامها وتردَّوا بين جميمها وجمامها، فصاروا من أهلها بالوِفادة عليها، وخلع أوطانهم إليها"[22]، ثمّ يُتابع تعليلَه، ليذهب أبعدَ من ذلك، فيرى أن الفضل للأندلس عليهم إذ شهَّرَتْهم وليس لَهُمْ عليها فضلٌ يُذكَر [23].

وحدَّدَ منهجَهُ من حيثُ الزمان والمكانُ، فمن حيثُ الزمانُ اقتصر على عصره، أي القرن الخامس الهجري، ومن حيثُ المكان انحصرَ عملُه في البيئة الأندلسية بمَن فيها من أُدبائها، وكذلك بمن وفدَ إليها من الأقاليم الأخرى واستوطنَ فيها، هذا باستثناء ما صنعَهُ من ذكر بعض أدباء المشرق من أهل الشام والعراق مُعلّلا ذلك باقتدائه بأبي منصور الثعالبي في كتابه (يتيمة الدهر في محاسنِ أهل العصر).

ب. منهجُهُ في اختيارِ الأدباءِ ونصوصهم:

يمكننا أن نتبيّن منهجَه في ذلك في نقاط عدّة أسّست لمنهجه العام في اختيار الأدباء وفي اختيار نصوصهم الأدبية شعراً ونثراً, و أهمُّ هذه النقاط:

1. اختيارُ ما جادَ من الشعرِ والنثرِ وما حسُنَ منهما لأدباءِ عصره, أي القرن الخمس الهجري, وبلده ويقصُدُ به المغربَ العربي.

كانَ ابنُ بسّامٍ يختارُ من النصوص ما يراها غريبةً متميّزَةً, ولا غرابةَ في ذلك إذا عرفنا أنّ غايتهُ

20 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص32
21 **المصدر نفسه**, ق4/مج1/ص7
22 **المصدر نفسه**, ق4/مج1/ص7
23 **المصدر نفسه**, ق4/مج1/ص8

من تأليف الكتاب المباهاةُ به ومجاراةُ أدب الشّرْق, يقولُ مشيراً إلى اختياره النصوصَ: ''وقد أوْدَعْتُ هذا الديوانَ الذي سمّيتهُ بـ(كتاب الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة) من عجائب علمهم, وغرائب نثرهم ونَظْمهم, ما هو أحلى من مناجاة الأحبّة, بين التمنُّع والرَّقْبة, وأشهى من معاطاة العُقار, على نغمات المثالث والأزيار, لأنّ أهلَ هذه الجزيرة– مذ كانوا– رؤساءُ خطابة, ورؤوسُ شعرٍ وكتابة, تدفّقوا فأنسَوا البحور, وأشرقوا فبارَوا الشّموسَ والبدور, وذهبَ كلامُهم بين رقّة الهواء وجزالة الصخرة الصّمّاء, كما قال صاحبُهم عبد الجليل بن وهبون, يصف شعره:

رقيقٌ كما غنّت حمامةُ أيكَةٍ وجزلٌ كما شقَّ الهواءَ عُقابُ''[24]

يُضافُ إلى إشارته هذه ما نجدهُ في عنوان الكتاب نفسه حين يقول(من محاسن), ولكنْ ما معيار الحسن والجَوْدة عنده؟ إنه في الحقيقة لا يشيرُ إلى ذلك في مقدّمته المنهجية.

2. لم يفرّق بين الأدباء من حيثُ التقدّمُ والتأخُّرُ, بل إنّه تهجّمَ على المنهج الذي يُفضّلُ أديباً لتقدّمه فهو'' يخرجُ على قاعدة الفضل للمتقدّم, وكانت سائدةً في عصره وما قبل عصره''[25], إنّه يطرحُ جانباً هذه الفكرةَ التي بقيت مضطربةً في ميزان النقد, فقد رأى أنَّ'' الإحسان غيرُ محصور, وليس الفضلُ على زمنٍ بمقصور, وعزيزٌ على الفضل أنْ يُنكرَ, تقدّمَ به الزمانُ أو تأخّرَ, ولحى اللهُ قولهم: الفضلُ للمتقدّم, فكم دفنَ من إحسان, وأخمل من فلان. ولو اقتصرَ المتأخّرونَ على كتب المتقدّمينَ, لضاعَ علمٌ كثيرٌ, وذهبَ أدبٌ غزيرٌ''[26].

3. لا يتحرّجُ من التصريح بإغفاله كثيراً من الأدباء ممن حقُّه الذّكرُ, وإيراده بعضَ الخاملينَ ذكراً, وتركه مشهوراً, يقولُ'' ولعلّ بعضَ مَنْ يتصفّحُه سيقول: إني أغفلتُ كثيراً, وذكرتُ خاملاً وتركتُ مشهوراً''[27], ثمّ يدافع عن صنيعه هذا مُعلّلاً ذلك بالظروف التي أحاطت به أثناء تأليفه لكتابه, يقول:'' وعلى رِسْله, فإنّما جمعتهُ بين صعب قد ذلَّ, وغَرْب قد فلَّ, ونشاط قد ملَّ, وشباب ودَّعَ فاستقلَّ؛ من تفاريقَ كالقرون الخالية, وتعاليقَ كالأطلال البالية, بخطّ جُهّال كخطوط الرّاح, أو مدارج النّمل بين مَهاب الرّياح, ضبطُهم تصحيفٌ, ووَضْعُهم تبديلٌ وتحريفٌ, أيْأَسُ الناس منها طالبُها, و أشدُّهم استرابةً بها كاتبُها, ففتحْتُ أنا

24 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص14
25 مكي, **دراسة في مصادر الأدب**, 340
26 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص13–14
27 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص15

أقفالها, وفضضْتُ قيودَها وأغلالَها,فأضْحَتْ غاياتِ تبيينٍ وبيانٍ, ووضَحَتْ آياتِ حُسْنٍ و إحسانٍ''[28].

4. يذكرُ صعوبَةَ اختيارِ مادةِ كتابه بسببِ تفرُّقِ النصوصِ والأشعارِ, يقول'' على أنّ عامةَ مَنْ ذكرتُهُ في هذا الديوان, لم أجد له أخباراً موضوعةً, ولا أشعاراً مجموعةً, تفسَحُ لي في طريق الاختيار منها, إنما انتقدتُ ما وجدْتُ, وخالسْتُ في ذلك الخمولَ, ومارستُ هنالك البحْثَ الطويلَ, والزمانَ المستحيلَ, حتّى ضَمَّنْتُ كتابيَ هذا من أخبارِ أهلِ هذا الأفق''[29].

وعليه فإن المادة العلمية التي جمعها في الذخيرة إنما هي نتاجُ جهدٍ ذاتي منه, ذلك أنّه لم يجد أمامه دواوين تجمع النصوص الأدبيّة ولم يجد كذلك مصنفات تضمُّ الأخبار والوقائع ذات الصلة بما يصنع, فبذل في عمله جهداً أيَّ جهدٍ, وعانى في ذلك أيَّةَ معاناة.

5. لم يفسّرْ النصوصَ المختارةَ, ولا شرحها, بل اكتفى بإيراد الأخبار والأشعارِ وجَمْعِها, وترْكِ ما غرُبَ منها أو استعصى على الفهم لغرابته أو غموضه, يقول'' وهذا الديوانُ إنّما هو لسانُ منظومٍ ومنثورٍ, لا ميدانُ بيانٍ وتفسيرٍ, أوردُ الأخبارَ والأشعارَ لا أفُكُّ مُعَمَّاها, في شيءٍ من لفظها ولا معناها''[30], لكنَّ قلمَه يأبى إلّا أن يُنيرَ بعضَ الأشياءِ التي خفيت معانيها, وأن ينتقدَ هنا وهناكَ, إذا دعَت الحاجة, يقولُ:'' لكن ربما ألممْتُ ببعضِ القولِ بين ذكرٍ أُجريه, ووجه عُذْرٍ أُريه, ولاسيّما أنواعُ البديع ذي المحاسنِ, الذي هو قيّمُ الأشعارِ وقوامُها, وبه يُعرَفُ تفاضُلُها وتبايُنُها, فلا بدَّ أن نشيرَ إليه, ونُنَبّه عليه''[31].

ويشيرُ الدكتور الطاهر مكي إلى منهجه في ذلك, فيقول:'' فإنْ توسَّمَ أنّ في القصيدة بيتاً غامضاً فسَّرَه, أو تركيباً معقّداً فصَّلَه, وذلَّلَ صعابه''[32], ويستشهدُ على ذلك بمثالٍ من قصيدة لابن درّاج في مدح المنصور بن أبي عامر[33], ولا بأسَ من ذكر هذا المثال, فحين انتهى ابن بسام من قصيدة ابن درّاج التي ختمها بقوله:[34]

ومـــا رأى قبلها قرناً أعانقُهُ * إلا وودّعَ نـفـساً لا تـراجعُـــهُ

28 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص15

29 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص16

30 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص16

31 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص16-17

32 مكي, **دراسة في مصادر الأدب**, 342

33 ينظر مكي, **دراسة في مصادر الأدب**, 342

34 ابن درّاج القسطلي, **ديوانه**, حققه وعلق عليه وقدّمه الدكتور محمود علي مكّي, منشورات المكتب الإسلامي بدمشق, ط1, 1961م. ص141

حتى بدا الصبحُ مُشْمَطاً ذوائبُهُ * يُـطـارِدُ الّلـيــلَ مَـوْشياً أكارِعُهُ
كأنّ جمعَ ضلالٍ حانَ مصرعُهُ * وأنت بالسيف يا منصورُ صارِعُهُ

علّقَ قائلاً"(مَوشياً أكارعه) جعل ذوائبَ الصبح مُشْمَطَةً من ممازجة الليل له, وجعل أَكَارِعَ الليل مَوشيةً من ممازجة الصبح لها, وجعلَ آخرَ الليل من مواخرِه وهي المتَّصلةُ بأوَّلِ الصبح, وآخرَ الصبح من مَقَادمه وهي المتّصلةُ بآخر الليل, وأصابَ في الإشارة إلى التشبيه لأنه أومأَ إلى أنّ الصبحَ كالثورِ الوحشي وهو أبيضُ, والثيران الوحشيّةُ كلُّها بيضٌ, وأكارعُها مَوشيةٌ خاصّةً. وإنما ألمَّ القسطليُّ في هذا بقولِ أعرابيّ يصف ليلةً: خرجنا في ليلة حندس قد ألقَتْ على الأرضِ أكارعَها فمحَتْ صورَ الأبدانِ, فماكدنا نتعارفُ إلا بالآذان"[35].

6. كان يستأنسُ بآراء النقّاد ويتّكئ عليها في دراسة بعض النصوص, ثمّ يبين أنه في كلّ ذلك يرجع إلى مَن عُرِف واشْتُهِر من العلماء, يقول: « و نَكِلُ الأمرَ في كلِّ ما نُثْبِتُه, ونرُدُّ الحكمَ في كلّ ما نُوردُه, إلى نقدِ النَّقَدَةِ المهَرةِ, وتمييزِ الكَتَبَةِ الشَّعَرَةِ, الذين هم رؤساء الكلام, وصيارِفَةُ النُّثَّارِ والنُّظَّام"[36].

من الأمثلة على ذلك ما أورده من أبيات لابن درّاج القسطلي الذي يقول في آخر بيت منها[37]:

نفوسٌ حنَتْ قَوْسُ عَطْفِي عَليها * فكُنَّ سهامَ قِسّيّ الخُمُولِ

يقولُ: " ومعنى هذا البيت كقولِ الرّضي ممّا أنشدهُ الثعالبي[38]:

هُنَّ القِسّيّ من النُّحول فإنْ سما * طلبٌ فهنّ منَ النَّجاءِ الأَسْهُمُ

قال الثعالبي وما أحسنَ ما جمعَ بين القسي و الأسهُم, وما أراهُ سُبِقَ إليه على هذا الترتيب"[39].

7. كان يتتبّعُ المعاني الحسنةَ, ويذكرُ السابقَ إليها, مع بيان مَنْ أبدعَ فيها, أو قصَّرَ عنها, ولا يتّهمُ أحداً بالأخذِ من الآخر عادةً, إذ يرى أنّ المعاني تتواردُ في ميدان الشعرِ ينهلُها أكثرُ من واحد, يقول: «و إذا ظفرْتُ بمعنىً حسنٍ, أو وقفْتُ على لفظ مستحسنٍ؛ ذكرتُ من سبقَ إليه, وأشرتُ إلى من نقصَ عنه, أو زاد عليه, ولستُ أقولُ: أخذ هذا من هذا قولاً

35 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص78
36 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص17
37 ابن درّاج القسطلي, **ديوانه**, 78
38 الشريف الرضي, **ديوانه**, دار صادر, ودار بيروت, 1961م. 2/ 342
39 ابن بسام الشنتريني, الذخيرة, ق1/مج1/ص89

مطلقاً, فقد تتواردُ الخواطرُ, ويقعُ الحافرُ حيثُ الحافرُ؛ إذ الشعرُ ميدان, والشعراءُ فرسان"[40], لكنّه لا يلتزم دائماً كتمانَ التصريح بالأخذ؛ فنراه يذكرُ أحياناً سرقات بعض الكتّاب, ولاسيّما إذا كانت تلك السرقاتُ واضحةً وضوحَ الشّمس, لا لبسَ فيها, فهو بما يملك من سعة اطّلاع لا تخفى عليه دقائقُ الأمور, فكيف تخفى عليه صنعةُ الأدباء في هذا الباب! وكبوتُهم في هذا الميدان! من ذلك ما صرّحَ به عن سرقة أبي محمد بن مالك القرطبي, يقول: « ومدَّ ابنُ مالك في رسالته هذه أطناب الإطناب, وشنَّ الغارةَ فيها على عدّة شعراءَ وكتّاب, من جاهليين ومخضرمين, ومحدثين ومعاصرينَ, ولو ذكرتُ من أين استَلَبَ واختطفَ, جميعَ ما وصفَ, وانصرفَ إلى كلّ أحد كلامُه, نثرُهُ ونظامُه, لحصل هو ساكتاً, وبقي باهتاً"[41].

ومنه أيضاً تصريحُه بكثرة أَخْذ أبي الْمُطَرِّف عبد الرحمن بن فتوح من غيره, بل إنه يتجاوزُ التصريحَ إلى تقبيح صنيع ابن فتوح في الأخذ من غيره, يقول فيه: "و ابنُ فتوح هذا كثيرُ الاهتدام والاغتصاب, والاختطاف والاستلاب, لأشعار سواه, قبيحُ الأخذ في كلّ ما انتحاه, وشعره كثيرُ البرد, وبينه وبين ابن برد من مسافة البعد ما بين القطب الثابت, والقصب النابت, وقد أثبتُّ في هذا المجموع من شعر الرّجلين, ما يتبيّنُ به الصبحُ لذي عينين"[42], ثمّ يقارن بين شعريهما ذاكراً جَودةَ شعر ابن برد ومزاياه و رداءةَ شعر ابن فتوح وعيوبه[43], وبعد أن يثبتَ جملةً من شعره في أوصاف شتّى, يمثّلُ لبعض من سرقاته من عدّة شعراء[44], ويعطفُ على سرقة له من ابن بُرد قائلاً: «يقول ابن فتوح:

ناولَني الكأسَ على غفلة * من ملأتْ ألحاظُهُ الكاسا
ظبيٌ إذا ما شمتَهُ شاربـاً * ذكّرنـي شاربُـهُ الآسا

وهذا من قول ابن برد, وقد تقدّم:

يا شارباً ألثمني شاربـاً * قد همّ فيه الآسُ أن ينبتا

وكذا بيتُهُ الأوّلُ من قول الآخر:

يا ربّ ساق يديرُ كأساً * تملؤهُ في الهوى جفونُه
كأنما قدُّه قضيب * يهفو بلبّ اللبيبِ لينُه"[45]

40 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص18-19
41 **المصدر نفسه**, ق1/مج2/ص752
42 **المصدر نفسه**, ق1/مج2/ص770
43 **المصدر نفسه**, ق1/مج2/ص771
44 **المصدر نفسه**, ق1/مج2/ص777
45 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج2/ص777-778

ومنه أيضاً تصريحُهُ بما يصنعُ الشاعر والكاتب المشهور ابن زيدون, يقول: «وأبو الوليد بن زيدون على كثيرِ إحسانه كثيرُ الاهتدامِ في النّثار والنّظام"[46].

تدور الأمثلة السابقة في فلك الشعر وفرسانه, لكن دقّته في تتبّع المعاني جعلته يتنبّه إلى نوعٍ آخر في هذا المضمار, ألا وهو حلول معنى من المعاني الواردة في رسالة أدبيّة ما في بيتٍ شعري, بمعنًى آخر أن يأخذَ كاتبٌ ما معنًى وارداً في بيت شعري ليجعله في رسالة نثرية, فهاهو ابن بسام يذكر فصلاً من رسالة لابن الدبّاغ, يقول في آخرها: « ولا ذنب لي إلا كفّ الأذى من لساني, ومسالمة الورى في سرّي وإعلاني, وإذا كانت هذه المحاسن التي تعجزُ عنها ذنوبي التي أُجفى لها, فكيف أستغفر منها, وقل لي كيف أعتذر عنها؟ وما زلتُ أجهد – على علمك – أن يكون هذا الانفصال عنه اختياراً, فأبى الله إلا أن يكون اضطراراً, وطمعت أن أستفيد في تلك الصحبة ما يعينني على نيّتي, ويريش جناحي للنهوض إلى طيّتي, فما حصلتُ منها إلا على قبيح عزائمي.

قال ابن بسام: وهذا الفصلُ محلول من قول البحتري حيثُ يقولُ[47]:

إذا محاسني اللائي أُدِلُّ به * كانت ذنوباً فقل لي كيف أعتذر"[48]

ج. منهجُه في رواية الأخبار:

يُكْتَبُ له اهتمامُه بالسياق التاريخي للأخبار التي يوردها, سواءٌ في الأخبار التاريخية التي تخصُّ الأحداث التي وقعت حينها, أم في الآثار الأدبية التي أوردها ضمن سياقها التاريخي, يقول: «وتخَلَّلْتُ ما ضمَمْتُهُ من الرسائلِ والأشعارِ, بما اتّصلتْ به أو قيلت فيه من الوقائع والأخبار واعتمدتُ المائةَ الخامسة من الهجرة فشرحْتُ بعضَ محنِها, وجلوْتُ وجوهَ فتنها, ولخّصْتُ القولَ بين قبيحها وحَسَنها, وأحصيْتُ عِلَلَ استيلاءِ طوائفِ الروّم, على هذا الإقليم, و ألْمَعْتُ بالأسباب التي دعَتْ ملوكَها إلى خلْعهم, واجتثاث أصلهم وفرعهم, وعبّرتُ عن أكثرِ ذلك, بلفظٍ يَتَتَبَّعُ الهمَّ بين الجوانح, ويُحِلُّ العُصْمَ سهْلَ الأباطح, وعوَّلتُ في معظم ذلك على تاريخ أبي مروانَ بنِ حيَّان, فأوردْتُ فصولَه ونقلْتُ جملَهُ وتفاصيلَهُ, فإنْ أعوزني كلامُه وعزّني

46 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص355

47 البحتري, **ديوانه**, تحقيق حسن كامل الصيرفي, منشورات دار المعارف, ط3, القاهرة. ص954

48 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق3/مج1/ص273-274

سردُهُ ونظامُه, عكفْتُ على طللي البائد, وضربْتُ في حديدي البارد, على حفظ قد تشعّبْ, وحظّ من الدنيا قد ذهب"[49].

يصرّح بأنّه خالفَ صنيعَ الثعالبي في يتيمته في هذا الباب, إذ يراه مقصّراً في ربط الآثار الأدبية التي تصدّى لدراستها بسياقها التاريخي, وبذلك فقد استفاد مما استدركه على الثعالبي فراح يخطُّ لنفسه منهجاً يمكنّه من سدّ هذه الثغرة, يقول: «ليجمعَ هذا المجموعُ بين الشعر والخبر, جمعَ الروضة بين الماء والزهر, والزمان بين الأصائلِ والبكَر, فإني رأيتُ أكثرَ ما ذكرَ الثعالبي من ذلك في (يتيمته) محذوفاً من أخبار قائليه, مبتوراً من الأسباب التي وُصِلَتْ به وقيلت فيه, فأَمَّلَ قارئَ كتابه منحَاهُ, وأحْوَجَهُ إلى طلبِ ما أغْفله من ذلك في سواه"[50].

وحين نرى استدراكَه على الثعالبي وتصريحه بذلك, يجدرُ بنا أن ننظر بعين الشَّك إلى ما ذهب إليه الدكتور مصطفى عليان عبد الرحيم من أنّ «المنهج التاريخي في النقد يظلُّ الأساس الحقيقي الذي صدر عنه كلٌّ من الثعالبي وابن بسام"[51], فإذا كان هذا الحكم ينطبق على ابن بسام تماماً, فإنه لايصحُّ أن يكون كذلك فيما يخصُّ الثعالبي الذي رآهُ ابنُ بسام مقصّراً في اهتمامه بالجانب التاريخي في كتابه. وهذا لا يقلّلُ من قيمة كتاب الثعالبي, «فإنّنا مع احتفاظنا للمنهج التاريخي بقيمته, واعترافنا بضرورته التي تتمثّلُ في إلقاء الضوءِ على الأثر الفني وتقصّي الظروف والملابسات التي تكتنفُ حياة الشاعر أو الكاتب, والتي تعين في فهم النص الأدبي, وتساعد القارئ أو الناقد في إرجاع الأشياء إلى أصولها والتحقيق من صحّتها إلا أننا لا نستطيعُ أن نكتفي به وحدّه[52]".

إذن الفرق بين ابن بسام والثعالبي أن الأولَ قد أعطى مزيداً من الاهتمام لجانب التاريخ في كتابه, ولعلّ الظروفَ السياسية الصعبة التي رافقت الأدب في الأندلس كانت تحثُّ ابن بسام على العناية بالأحداث وربط الأدب بها, وتدفعُ يراعَهُ إلى العناية بتأريخها.

وكما أسلفت فإن صنيعه في ذلك كلّه لم يأت عبثاً ولا عرضاً, فبعد أن يقسمَ كتابه أربعة أقسام ويذكر تحت كلّ قسم من سيذكرهم واحداً واحداً يعود ليؤكّد منهجه هذا قائلاً: " وقد وعدتُ في صدر هذا الكتاب بأن أتخلّل أشعار الشعراء, ورسائل الكتّاب والوزراء, بما عسى

49 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص17-18

50 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص34

51 عبد الرحيم, مصطفى عليان, **تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري**, مؤسسة الرسالة, بيروت1984م. ص 646

52 العشماوي, محمد زكي, **قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث**, دار النهضة العربية, بيروت 1979م. ص425

أن يتعلّق بأذيالها, ويساير أفياءَ ظلالها, من أنباء فِتَنِ ذلك الزمان البعيد–كان– طَلَقُهَا, المُفَرّق لِشملِ الأمرِ في هذه الجزيرةِ نَسَقُها, ونُلْمَعَ بِنُبَذٍ من مشهورِ وقائعها, ونُشيرَ بأسماء طوائفِ توابعها وزوابعها...''[53], ويرى الدكتور الطاهر مكّي أنّ ابن بسّام بذلك: «يحقّقُ أدقَّ قواعد النقد الأدبي الحديث التي تقرّرُ: إن تفسير الأدب وتقويمه يكونَ أكثر وضوحاً ودقَّةً, إذا عُرِفتْ الظروفُ التي قيلت فيها, والحوافزُ التي دَفَعَتْ إليه, والملابسات التي صحبته, وفي نفس الوقت تسهم هذه المقدماتُ في توضيح الإشارات التي تحتويها القصائدُ وتحديدِ مدلولِها''[54].

ثمّة نقطةٌ مهمة لابد من ذكرها وهي أنه قد عوّل كثيراً في نقولاته التاريخية على كتاب التاريخ الكبير لأبي حيَّان, وقد صرّحَ بذلك في مقدّمة كتابه (الذخيرة), يقول: «وسينخرط في سلك ما أوشّح به هذا التصنيف, من تلخيص التعريفِ بأخبار ملوك الجزيرة, وسرد قصصهم المأثورة, ووقائعم المبيرة المشهورة, لأبي حيان, فصولٌ من غرائبه, وجملٌ وتفاصيلُ من عجائبه... وأكثرُ ما يمرُّ في هذا الكتاب, من هذا الباب, فعلى تأريخه الكبير عوّلتُ, ومن خطّ يده أكثرُ ما نقلتُ, وتحرّيتُ جهدي اقتضابَ ما طوّلَ, وتخفيفَ ما ثقّلَ, وإجمالَ ما شرحَ وفصّل''[55], ويعزو ابنُ بسَّام هذه النقولَ إليه كلّما سردَ واقعة تاريخية, أو خبراً,[56] تُكْتَبُ لابن بسَّام هذه الأمانة العلمية فِي النقلِ, كما يُكتبُ له أيضاً تحرّيه لحوادث التاريخ التي رافقت النتاج الأدبي في تلك العصور الغابرة, ولاسيما إذا تفهّمنا المحن التي كانت تعصفُ بالمسلمين في تلك الأصقاعِ حين كان قلمُ ابن بسّام يذودُ عن البلادِ وأهلها وينافح عنهما.

كثرةُ الشواهد على اهتمامه بهذا الجانب تغني عن التمثيل لها, فهو يصدّر لأي شخص يذكره بوقائع التاريخ المرتبطة به وبالأخبار المتصلة به, وهذا ديدنه في كل الكتاب.

والحقُّ أن اهتمامه بالسياق التاريخي في ذخيرته, جعل من الكتاب مصدراً مهمّاً للأحداث التاريخية المختلفة, ولا سيما ما ورد منها في الرسائل الديوانية التي أولاها اهتماماً كبيراً, لما حوته من وصف لتلك الأحداث وهذا ما دفع شوقي ضيف إلى التعقيب على رسالة ابن

53 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص34
54 مكي, دراسة في مصادر الأدب, 342
55 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص34-35
56 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص53-60

القصيرة على لسان المعتمد بن عباد في وصف معركة الزلّاقة, بالقول" وليت ابن بسّام روى هذه الرّسالة كاملةً حتّى تتراءى وقعةُ الزلّاقة المجيدة بكلّ تفاصيلها"[57].

من الرسائلِ القيّمة من الناحية التاريخيّة –وما تضمّنته من أسسٍ وَضَعَهَا يوسفُ بن تاشفين لبناء قضاءٍ عادلٍ متينٍ– رسالةُ ابنِ القصيرة على لسان ابن تاشفين وجّه بها إلى أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين حين ولّاه القضاء بقرطبة سنة 490هـ, يقول فيها" وصلَ كتابك فوقفنا على معانيه, وأحصينا المجمل والمفصّل مما ذكرته فيه... استهد بالله يُهدِك, واستعنْ بالله يُعنْكَ, وتولَّ القضاءَ الذي ولّاكَهُ اللهُ بجدّ وحزم, وجَلَد وعزم, وأمضِ القضايا على ما أمضاها الله تعالى في كتابه وسنّةِ نبيّه, ولا تبالِ برغْمٍ راغم, ولا تشفق من ملامة لائم وآسِ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمَعَ قويٌّ في حيفك ولا ييأسَ ضعيفٌ من عدلك, ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذَ الحقَّ له, ولا أضعف من القويّ حتى تأخذَ الحقَّ منه, وانصحْ لله تعالى ولرسوله ولنا ولجماعة المسلمين"[58].

هذه الرسالة تشيرُ إلى السياسة القائمة في الدولة حينها, وذلك في أهمّ مظاهرها ألا وهو القضاء الذي أراده ابن تاشفين قضاءً عادلاً لا يفرّق بين قوي وضعيف, ويُنصَف فيه المظلومُ ويؤخذُ فيه على يد الظالم, وليؤكّدَ ابن تاشفين شفافية القضاء ونزاهته يعلن خضوعَه التام للقضاء, فإذا خضع الحاكم لعدل القضاء فما أيسر خضوعَ الرعيّة له, وبذا تبنى الدولة على أساس قويٍّ تجعل من الرعيّة قوّة فاعلة في الدولة مدافعةً عنها لأنها حينها منها وإليها, يقول ابن تاشفين في الرسالة نفسها على لسان ابن القصيرة: « وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلّموا لك في كلّ حقٍّ تمضيه, ولا يعترضوا عليك في قضاءٍ تقضيه, ونحن أولاً وكلُّهم آخراً مذ صرت قاضياً, سامعون منك, غيرُ معترضين في حقٍّ عليكَ, والعمّالُ والرعيّةُ كافّةً سواءٌ في الحقّ..."[59], وبعدها يوجّهه بالعدل بين العامل والرعية, وبتنظيم العلاقة بينهما على أساس من العدل القائم على محاسبة المخطئ أيّاً كان منهما.

وبذلك تتضح لنا قيمة الرسائل من الناحية التاريخية, فقد كانت سجلّاً حافلاً بالأحداث المتنوّعة أضاءَ لنا جوانب كثيرةً من الحياة القائمة آنذاك, ومن هنا فإنّ اهتمام ابن بسام بربط الأدب بالتاريخ كان له عظيم الأثر؛ إذ خلَّد لنا وقائعَ تاريخيةً من جهة, ومن جهةٍ أخرى فقد

57 ضيف, شوقي, **تاريخ الأدب العربي, عصر الدول والإمارات, الأندلس**, دار المعارف, القاهرة, 407

58 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق2/مج1/ص260-261

59 **المصدر نفسه**, ق2/مج1/ص261

ساعدنا ذلك على تفسير الأدب الذي وضعه بين أيدينا ضمن سياقه التاريخي, فبدا أكثرَ وضوحاً, وتجلّى عنه كثيرٌ من الغموض.

د. منهجه في ذكر ألوان البديع:

يشير صراحةً في مقدمة كتابه إلى عنايته بالبديع, بوصفه أسلوباً لتحسين الألفاظ والمعاني, وأداةً لتقييم الشعر والنثر من حيث التفاضلُ والتباينُ, يقول: « وهذا الديوان إنما هو لسانُ منظومٍ ومنثورٍ, لا ميدانُ بيانٍ وتفسيرٍ, أوردُ الأخبارَ والأشعارَ لا أفكُّ معمّاها, في شيءٍ من لفظهاً ولا معناها, لكن ربّما ألممتُ ببعض القول, بين ذكرٍ أجريه, ووجهٍ عذرٍ أريه, لاسيّما أنواع البديع ذي المحاسن, الذي هو قيّمُ الشعر وقوامُها, وبه يُعرَفُ تفاضُلُها وتباينها, فلا بدَّ أن نشير إليه وننبّهَ عليه"[60], ويُلاحظُ أنّه قد ذكر عنايته بالبديع بعد مصارحته بالإضراب عن تفسير المعاني المغلقة الغامضة, فهو يرى أن الغاية من تأليف هذا الكتاب لا تتجهُ إلى التفسير والبيان, والمزامنة والاقتران بين ذكرِه العنايةَ بالبديع ونفيهِ للتفسير والبيان يقودنا إلى نتيجة مفادها أن العناية بالبديع وألوانه هو نوع من التفسير والبيان للمعاني, فبعد أن يعرض عن التفسير والبيان يستدرك ذلك بقوله(لكن ربما ألممت...), ثمّ يخص البيان ويستثنيه(ولاسيما أنواع البيان ذي المحاسن), و «بدون هذا التأويل فإننا لا نكاد نفهم معنى تحدُّثه عن البديع في سياق الاعتذار عن عدم الخوض في تفسير الألفاظ والمعاني, وشرح معمّاها"[61], وكما عهدناه في منهجه عامةً فإنه ينطلق فيه وفق تصوّر شاملٍ لمنهجه الذي ارتضاه لكتابه, وهاهو يعود كرّةً أخرى في مقدمته ذاكراً عنايته بالبديع وألوانه, ولكنه هذه المرّة يذكره بعد أن يتهجّم على الأدب نثرِه ونظمِه اللذين يرى فيهما أباطيلَ وضلالاً وتمويهاً, في الوقت الذي يرى فيه البديع من حقائق العلوم, يقول: « وحقائقُ العلوم أولى بنا من أباطيل المنثورِ والمنظومِ وعلى ذلك فقد وعدتُ أن ألمع في هذا المجموع, بلُمَعٍ من ذكر البديع وأنْ أمهّد جانباً من أَسبابه, وأشرحَ جملاً من أسمائه وألقابه"[62] وكأني به يرى عزاءه في البديع كلما ضجرَ وملَّ, ولا غرابة في ذلك إذا كنّا « في الحقيقة أمام مفهوم خاصٍّ للبديع إذا صحَّ فهمنا وتأويلُنا لكلام ابن

60 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص16-17
61 ابن محمد, **ابن بسام الأندلسي وكتابه الذخيرة**, 251
62 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص18

بسام. إنه لا يرى في البديع مجرد تحسين للفظ والمعنى, ولكنه يرى فيه بالإضافة إلى ذلك أداةً لسبر أغوار المعاني التي يعبّر عنها الأدباء في نثرهم ونظمهم"[63].

ولذلكَ فإنه لا ينسى أن يشيرَ إلى مدى اهتمام أدباء الأندلس بالصنعة الفنية لنصوصهم تجويداً و تنميقاً, ولعلَّ في ذلك إشارةً مبطّنةً إلى مجاراتهم للمشارقة الذين أخذت الصنعة تأسرهم وتطبعُ أدبهم, ولا تلبثُ هذه الإشارة أن تتّضحَ حين يقارن بينهم وبين أدباء المشرق وذلك في معرض حديثه عن صنعتهم تلك, يقول: «وما زال في أفقنا هذا الأندلسيّ القصيّ من فرسان الفنّين, وأئمة النوعين, قومٌ هم ما هم طيبَ مكاسر, وصفاءَ جواهرَ, وعذوبةَ موارد ومصادرَ, لعبوا بأطراف الكلام المُشقَّق, لعبَ الدُّجى بجفونِ المؤرَّق, وحدوا بفنون السّحر المنمّق, حداء الأعشى ببنات المُحَلَّق, فصبّوا على قوالب النجوم, غرائبَ المنثور والمنظوم, وباهوا غُررَ الضّحى والأصائل, بعجائب الأشعار والرسائل: نثرٌ لو رآه البديعُ لنسي اسمَهُ, أو اجتلاه ابنُ هلال لولّاه حكمَهُ, ونظمٌ لو سمعَهُ كُثيّرٌ ما نسب ولا مدحَ, أو تتبّعه جروَلٌ ما عوى ولا نبحَ"[64].

واللافت للنظرِ في كلامه السالف, تلاعبُهُ بالكلام على نحوٍ تتمثَّل فيه الصنعةُ وكأنّها أخذت حظّها من قلمه, ومن اللّافت فيه أيضاً ذكرُهُ لأدباء بعينهم من المشرق حين يقارن بين أدبهم وأدب الأندلسيين, فمثلاً نراه يذكرُ كثيّراً من الشعراء, ومعلومٌ أنَّ كثيّراً تلميذُ مدرسة زهير في الصنعة كما يقول الدكتور شوقي ضيف حين يستشهدُ له بأبيات صنعَ فيها صوراً شبيهةً بصورِ الحربِ عند أستاذه زهير في الجاهلية[65], وتكادُ هذه الصورُ التي صنعها كثيّرٌ تتواترُ في كتب التراث[66].

ويؤيّد ما ذهبنا إليه من عنايته بصنعة الأدباء الأندلسيين, ما ذكره في فصلٍ عقده تحت عنوان(فصلٌ في ذكر الأديب الأستاذ الأديب النحويّ أبي عبد الله بن خلَصة الضرير), يقول في مقدمة التعريف به: « وكان أحدَ العلماء بالكلام, وله حظٌّ من النثر والنظام, ولكنّه بالأئمّة العلماء, أشبه منه بالكتاب والشعراءِ, وقد مرّت بي له أشعار يشير بها إلى البديع,

63 ابن محمد, **ابن بسام الأندلسي وكتابه الذخيرة**, 251

64 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص11-12

65 ينظر, ضيف, الفن ومذاهبه في الشعر العربي, 1960, ص-36 37

66 ينظر, الجاحظ, عمرو بن بحر أبو عثمان (ت255هـ), **البيان والتبيين**, تحقيق: عبد السلام هارون, مكتبة الخانجي, ط7,القاهرة 1998م. 3/ 244, و ابن جني, عثمان (ت 392هـ) **الخصائص**, تحقيق: محمد علي النجار, دار الهدى, ط2, بيروت. 1/ 32, والجرجاني, عبد القاهر (ت 474هـ), **دلائل الإعجاز**, قرأهُ وعلّق عليه: محمود محمد شاكر, مطبعة المدني بالقاهرة, دار المدني بجدة, ط3, 1992م. -511 519

ويذهبُ فيها إلى التصنيع, وقد أوردتُ منها جملةً تليقُ بالديوان, وتنبّهُ على موضع قائلها من الإحسان"[67].

والحقُّ أنَّه يحتفلُ بورودِ ألوان البديع عند الأدباء, كلما رأى معنىً ما أجاد فيه صاحبُه, أو قصّر عنه مقارنةً مع غيره من الأدباء, ولاسيما أدباء المشرق, فكان يعزو المعاني إلى أصحابها ويعلّق عليها بما أوتي من ملكة نقديّة ومن فكرٍ نافذ ينمازُ بقوّة البديهة التي تتطرّقُ إلى الفكرة المطروحة من وجوهٍ عدّة, شرحاً ونقداً وتفسيراً, وهذا ما نراه في ذخيرته في غير مناسبة, ويكتفي البحثُ بإيراد مثال واحد للتدليل على ذلك, قال ابن بسام"ومن هذه المبالغة في التتميم أيضاً قولُ امرىء القيس[68]:

كَأنَّ عُيونَ الْوَحْشِ حَولَ خِبَائِنَا * وَأَرْحُلِنَا الْجِزْعُ الَّذي لَمْ يُثَقَّبِ

فتناولَهُ زهيرٌ فقالَ[69]:

كأن فُتَاتَ الْعِهْنِ في كُلِّ مَنْزِلٍ * نَزَلْنَ به حَبُّ الْفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ

ويسمّي أصحابُ البديع ما كانَ مخصوصاً من هذا النَّوع بالقافية:(الإيغالَ) (والتتبيعَ) وما كانَ في أضعافِ البيت: (المبالغةَ) و (التتميمَ) «[70].

هـ.منهجه في عرض النصوص الأدبية:

ثمَّة ملامحُ يُمكن أن نتكئ عليها في فَهْم منهجه في إيرادِه للنصوص الأدبية شعراً ونثراً، ويمكن لنا أن نتبيّنَ هذه الملامحَ باستقراء ما قام به في كتابه عندما كان يوردُ النصوصَ الأدبيةَ، وتتمَثَّلُ هذه الملامح في:

1. تقديم النَّثرِ على الشعر:

كان –في ترتيبه بين أصحاب الفنون الأدبيّة– يبدأ بذكرِ الكتَّاب، يقول: "وبدأتُ بذكرِ الكتَّاب، إذ هم صدورٌ في أهل الآداب، إلّا من يكون له حظٌّ من الرياسة، أو يدعو إلى تقديمه بعضُ السياسة"[71].

بدا واضحاً أنه كان يُقدّم النصوصَ النثريّة على الشّعريّة منها، وكان هذا ديدنَه مع مُعظمِ

67 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق3/مج1/ص322
68 امرؤ القيس, **ديوانه**, ص 53
69 زهير بن أبي سلمى, **ديوانه**, ص 12
70 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق3/مج2/ص847-848
71 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص32

الأدباءِ الذين اختار لهم نصوصاً أدبيَّة، وفي الحقيقة لا يفْاجَأُ الدَّارس لكتاب ابن بسام من ذلك إذا ما اطَّلعَ على مقدّمة كتابه، ورأى أنّه قد قدَّمَ ذِكْرَ الرّسالة على الشعر، يقولُ في مقدّمة الكتاب: ''أمَّا بعد حمد الله وليّ الحمد وأهله، والصلاةُ على سيدّنا محمد خاتم رُسُله، فإنَّ ثَمَرةَ هذا الأدب العالي الرُّتَب، رسالةٌ تُنثر وتُرسَلُ، وأبياتٌ تُنْظَمُ وتُفصَلُ، تتناولُ تلكَ انثيالَ القطار، على صفحاتِ الأزهارِ، وتتَّصلُ هذه اتَّصالَ القلائد على نحورِ الخرائد''[72].

تكَرَّرَ صنيعُه هذا غير مرَّةٍ في مُقدمته، من ذلك مثلاً، قولُه: «وقد أودعْتُ هذا الديوان الذي سمّيتُهُ بـ(كتاب الذخيرة، في محاسن أهل هذه الجزيرة) من عجائب علمهم، وغرائب نثرهم ونظمهم''[73]، والواو وإن كانت تفيد التساوي في المشاركة بالحكم، إلا أنَّ ابن بسام قد ذكَرَ النثرَ أولاً، ومنه أيضاً «وتخلَّلتُ ما ضممْتُهُ منَ الرسائل والأشعار''[74]، ولا بدَّ منَ الإشارة إلى أنَّ ابنَ بسَّام قد يُقدّمُ لفظة الشعر أو ما يرادفُها على النثر أو ما يرادفُه، وما صنيعه إذْ ذاك إلا مراعاةً لتناسبِ أواخرِ جمله، من ذلك قوله:'' و هذا الديوان إنَّما هو لسانُ منظومٍ ومنثورٍ، لا ميدانُ بيان وتفسيرٍ''[75], ويؤيّدُ ما أشرنا إليه من تقديمه النثرَ على الشعرِ أمران:

أمّا الأوّلُ فلأنه كان يُقدّمُ ذِكرَ النثر على الشعر في بدايةِ ذكرِه لكلِّ أديبٍ من الأدباء، وهذا كان منهجُه غالباً، يقولُ مثلاً: «فصلٌ في ذكرِ الوزيرِ الكاتب أبي المغيرةِ عبد الوهاب بن حزم، وإثبات ما تخيّرتُ لهُ منَ النثرِ والنَّظْمِ''[76] ويقول في مقدمةِ ذكرِ أديبٍ آخرَ: «فصلٌ في ذكرِ الوزيرِ الفقيهِ أبي حفصٍ عمرَ بن الحسنِ الهوزني وإثباتِ فصولٍ من نثرِه، مع ما ينخرط في سِلْكِها من شعره''[77].

والحقُّ أنه خرجَ غيرَ مرَّةٍ عن منهجه هذا، فقدَّم ذكرَ الشعر على النثر، كالذي فعله مع الوزيرِ الكاتب أبي محمد بن ذي الوزارتين المشرف أبي مروان بن عبد العزيز، فبعد أن عرَّفَ به قال: «وإثبات جملة من نظمهِ ونثره [78]''، وبعدَ أن يذكرَ الأخبارَ المتعلّقة به ويشير إلى

72 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص11
73 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص14
74 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص17
75 **المصدر نفسه**, ق1/مج1/ص16
76 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق1/مج1/ص132
77 **المصدر نفسه**, ق2/مج1/ص81
78 **المصدر نفسه**, ق2/مج1/ص533

الأحداث التي رافقت ذلك، يعودُ ليقول: ''جملة ما وقعَ إليَّ من نثرِه مع ما ينخرِطُ في سلكِ ذلك من شعره[79]''، لكنَ هذا لا يعيبُ منهجه العام الذي سارَ عليه.

وأمّا الآخرُ فكونه كان يترجمُ ذلك عمليّاً، فباستقراء الكتاب نجد أنَّهُ يذكرُ النصوصَ النثرية أولاً ويُعقّبُها بنصوصِ الشعر، من ذلك مثلاً ما صنعه مع الكاتب أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال، فهويورِدُ فصولاً من نثره[80]، ثمَّ يوردُ له مقطوعاتٍ من شعره[81]. والمفاضلةُ بين الشعر والنثر قديمةٌ لها أصداء في كتب النقد القديمة[82].

2. تأرجح اختيارات ابن بسام للرسائل النثرية من حيثُ الطولُ والقصرُ، فتارةً يعرضُ الرّسالة كاملةً، وتارةً يوردُ فصلاً منها، وتارةً أخرى يوردُ مقاطعَ عِدة من نفسِ الرسالة إذا كانت طويلةً جداً.

أولاً: عرضُ الرسالة كاملةً, أو الاجتزاء منها.

كان يُرواح بين سرد الرسالة كاملة أو الاجتزاء منها بحسب أهميتها، أو بحسب ما وصل إليه منها.

مِنَ الرَّسائل التي أوردَها كاملةً، رسالةٌ للكاتبِ أبي محمد عبد الغفور خاطبَ بها بعضَ أهلِ عصرِه، وهي ردٌّ على مَن نَفَى عنه عِلمهُ بالكتابةِ وبراعتَهُ فيها، وقد افتتحَ رسالتَه هذهِ ببيتين من الشعر:

«لولا عدًى غاظوا الصديـــ * قَ بنفيهم عني الــكتابة

لــم أوذِ سَمْعَــكَ بالـهُــرا * ء ولا انحرفْتُ عن المهابة

لعمري وإنْ كانَ نَفَى منفيًّاً، وتقرَّعَ صديقاً حفيًّاً، لربَّ أعجمَ ضَجرَ فافصحَ، وأجذمَ عُيّرَ فقدَحَ... وربَّ كاتبٍ أثقفَ مبانٍ، وأشرفَ أبيات معانٍ، ولكنّه عيني التي بها أُبْصِرُ، وعَضُدي التي بها أنتصرُ، فمن ذا الذي يعتمدُ بسوءٍ بَصَرَهُ، ويقلعُ نابَه حين يجني عليه أو ظفرَهُ''[83].

وقلّما يعرضُ رسالة بتمامِها، ومِنَ الرسائل التي نصَّ على تمامِها، رسالةُ ابن غرسية التي يخاطبُ بها الشاعر ابن الخراز، يقول عنها: «وهذه نسخةُ رسالةِ ابن غرسية يخاطبُ الشاعرَ ابن الخراز المذكور''[84]، ثم يعودُ لينصَّ على تمامِها بعد أن فرغَ منها صاحبها، يقول: «فختمَ

79 **المصدر نفسه**, ق2/مج1/ص536

80 **المصدر نفسه**, ق3/مج2/ص788-792

81 **المصدر نفسه**, ق3/مج2/ص793-797

82 يُنظر عبد الرحيم, تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري, 540

83 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق2/مج1/ص326-333

84 **المصدر نفسه**, ق3/مج2/ص705

رُقْعتَه كما تراه بأبياتِ المعريّ[85]''، وكان ابنُ غرسية قد ختمها بأبيات المعريّ التي يقول فيها[86]:

قدْ استحيْيتُ منكَ قلا تكلني * إلى شيءٍ سوى عُذرٍ جميـــلِ
وقد أنفذتُ ما حقّي عـليــه * قبيحُ الهجوِ أو شتم الرســولِ
وذاك على انفرادكَ قوتُ يوم * إذا أنفقْتَ إنفاقَ البخيـــلِ
وكيفَ وأنتَ عُلْويُّ السَّجَايا * وليس إلى اقتصادك من سبيلِ
وقد يُقْوي الفصيحُ فلا تقابلْ * ضعيفَ الـبـــرّ إلّا بالقبـولِ
وإنَّ الـوزنَ وهــو أَصَـحُّ وزنٍ * يُـقـامُ صَغَاهُ بالحرفِ العليلِ
فإن يكُ ما بعثتُ به قليلاً * فلي حالٌ أقلُّ مِنَ القليـــلِ

ويبدو أنّه حينَ كان يوردُ الرّسالةَ كاملةً، كان هناك سببٌ ما يدعو لذلك، ففي رسالة ابن غرسية التي أشرنا إليها، ثمة رسائل كثيرة وردت ردًّا عليها، ذلك أن رسالةَ ابن غرسية كما يقول ابن بسام نفسه ـ''ذميمةٌ، غرَّبَ في تسطيرها، فلم يسبق لكثرة غلطه فيها وزلَله إلى نظيرها، وذمَّ فيها العربَ، وفخرَ بقومه العجم، وأرادَ أنْ يُعربَ فأعجمَ ، وإذا قد أفضى بنا القولُ إلى ذكرها، فأنا أثبتُها ها هنا بأسرِها''[87]، ولا يكتفي بإثباتها وحسبْ، بل يوردُ رسائلَ عدةً ردَّ فيها أصحابُها على ابن غرسية، غير أنَّه لا يوردُ هذه الرسائل الرَّدّية بتمامِها بل يكتفي بفصولٍ منها وذلك لطولِها المفرط.

من الرسائل التي جاءت ردًّا عليها رسالةُ أبي جعفر أحمد بن الدودين البلنسي، التي يقول في مقدمة فصلٍ فيها «اخسأ أيُّها الجهولُ المارقُ، والمرذولُ المنافقْ، أينَ أمُّكَ ثَكَلَتْكَ أَمُّك...[88]''، وأبو جعفر يردُّ في رسالته هذه على أدَّق التفاصيلِ التي أثارها ابن غرسية في رسالته، فيذكرُ تفاصيلَ شبهات ابن غرسيّة في رسالته، ثمّ ينفيها عن العربِ ويردُّ عليها.

ومن الرسائل التي جاءت ردّاً عليها أيضاً، رسالةُ أبي الطيبِ عبد المنعم القروي، يقول عن ذلك ''وممن ردَّ أيضاً على ابن غرسية وأجادَ ما أرادَ أبو الطيب عبد المنعم القروي، برسالة أثبتُّ أكثرَ فصولها، على طولها لاشتمالها على المآثرِ العربيّةِ والمفاخرِ الإسلامية، قال في أوّلِها مفتتحاً:

85 **المصدر نفسه**, ق3/مج2/ص714
86 المعري, **سقط الزند**, دار بيروت للطباعة والنشر, دار صادر, بيروت 1957م. ص242-243
87 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق3/مج2/ص704-705
88 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق3/مج2/ص715

وذي خَطَلٍ في القولِ يحسَبُ أنَّهُ * مصيبٌ فما يُلْمِمْ به فهو قائلُه
نهدْتُ لـه حتى ثـنـيـتُ عـنَـانـه * عن الجهلِ واستولتْ عليه مَعَاقلُه
تـعـالَ فـخـبّرنـي علامَ تشدَّدَتْ * قُوى العيرِ حتَّى أحرزتكَ مجاهلُه[89]"

ثانياً: إيرادُ فصلٍ أو فصولٍ أو مقاطعَ من الرسالة نفسها.

مِنَ الرسائلِ التي اكتفى بإيرادِ فصلٍ منها، رسالةٌ للوزير الفقيه الكاتبِ أبي القاسم محمد بن عبد الله بن الجد، يقول: « وله فصلٌ من جواب خاطبَ به بعضَ الأدباء الشعراءِ: وردتني لك قطعتان من القريضِ، كقطع الرّوض الأريضِ، أو نَغَمِ مَعْبَدٍ والغريض، تبسّمتا عن ثغرِ وفاء، وأَهْدَتا إليَّ رَوْحَ شفاء، فَأَشْعَلت بذكر تَهمُّمِكَ مجمراً، ووضعتُ عليه من ثنائي ندّاً وعَنبراً، ورأيت ما ذكرتَه من إزماعكَ على الرّحيلِ، واستجماعكَ لركوب ظهرِ السبيل، فاسترجعت بذكرِ البين، ما وهبت من أُنسِ السّعدين، والله يردُّ ذلك الصعبَ ذلولاً، والحزنَ سُهولاً، ولا يعدمك ممّن ترجوه ترحيباً وتسهيلاً «[90]، ويكتفي بإيراد هذا الفصل من دون أن يبيّن مناسبة الرّسالة وتفاصيلَ موضوعِها, ولا نعرفُ إن كان لها مقدّمة أو خاتمة وهل هي طويلة أم قصيرة؟.

يتكرّرُ هذا الصنيعُ منه مع أغلب الكتّاب، فها هو مثلاً أثناء ترجمته لابن الدّباغ وإيرادِ رسائله، يذكرُ لهُ فصولاً مستقلّة من رسائلَ عدَّة، من غير أن يبيّنَ مناسبةَ هذه الفصولِ ضمن رسائلها، ومن غير أن يبين لنا سببَ اختياره لهذا الفصل من الرسالة دون غيره, وأغلب الظّنّ أنّه يعتمد الذوقَ في إثبات هذه الفصول, على أنَّ الرَّجُلَ يشيرُ في بدايةِ كُلِّ فصلٍ إلى استقلاليّته، فيقول مثلاً،(فصلٌ لهُ من رقعة) أو يقول:(ولهُ في مثلهِ من أخرى)، أو يقول(ولَهُ من أخرى)، أو يقول:(وله في فصلٍ من أخرى)، أو يقول(ولهُ من جواب على كتاب وردَ عليه....)، وهو يُعدّدُ أكثر من ثلاثين فصلاً مستقلاً, وكلُّ فصلٍ منها من رسالة لا نعرفُ حجمها ولا كُلَّ مضمونها، ثمَّ بذكرُ له فصولاً من رسائلَ في العناياتِ والوسائلِ بلغتَ ثماني رسائل، ثمَّ يذكرُ له فصولاً من رسائلَ في التعازي[91].

وليسَ له منهجٌ محدَّدٌ في ذلك، ومع كثرةِ الفصُولِ المستقْلَّةِ يبدو عملُه في هذا الباب عملاً عشوائياً غيرَ مستندٍ إلى أسسٍ واضحة المعالم.

و يعمدُ كثيراً إلى الرسالةِ الواحدة فيوردُ منها فصولاً عدّة، أو مقاطعَ صغيرة منها، ولا ينطلق في صنعتهِ هذه أيضاً من منهجٍ مستندٍ على أسسٍ واضحةِ المعالم، بل تبدو صنعتهُ هذه

89 **المصدر نفسه**, ق3/مج2/ص723
90 **المصدر نفسه**, ق2/مج1/ص313
91 ابن بسام الشنتريني, **الذخيرة**, ق3/مج1/ص254-317

عشوائيةً، وتبدو المقاطعُ أو الفصولُ فيها مفكَّكَةً لا يربطها ببعضها البعض خيطٌ أو سبب، ولعلَّ الذي دفعَه إلى ذلك طولُ الرِّسالة ممّا يبعثُ على الملل والضّجر، وكما أشرنا فالأمثلة على ذلك كثيرة، ونكتفي بإيراد مثال واحد، للتدليل على ذلك، فقد أوردَ لأبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي عدة فصول من رسالة له، يقول: «فصلٌ من رقعةٍ فيها طولٌ لأبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي...»[92]، ثمّ يذكرُ ثلاثة فصولٍ منها، وبعدها يذكرُ رُقعةً لابن مثنى في جوابه لأبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي، يقول: «فأجابه ابن مثنّى برقعةٍ أيضاً فيها طول يقول فيها: وافى كتابُك...»[93].

ولا يلتزمُ في كلِّ ذلك بمنهجٍ محدّدٍ لترجمة الأدباء من حيثُ الطولُ والقصرُ، فتارةً تطولُ ترجمتُه للأديب الواحد، وتارةً تكُون الترجمة متوسّطة وتارةً أخرى تكون قصيرةً عابرةً.

الخاتمة ونتائج البحث:

بين البحث منهج ابن بسام في كتابه (الذخيرة), ذلك المنهج الذي وضعه لنفسه عن تصوّر شامل ينم عن سعة ثقافته وتمدّد أفقه, فكان منهجه واضحاً في مقدمة الكتاب, أشار إليه الرجل في غير موضع, ليترك أثراً في نفس المتلقي بأنه ينطلق في كتابه وفق أسس سيسير عليها, وقد بين البحث النقاط التي ترسم ملامح منهجه, وبين كذلك تجليات تلك النقاط التي تتوضح في عناوين عامة تؤسس لمنهجه, فتوصل البحث إلى نتائج ومقولات عدة تلخّص منهجه, من أبرزها:

·التزم بمنهجه الذي رسمه في مقدمة ذخيرته فبدت تجليّات ذلك المنهج بوضوح في تناوله للأدباء ونصوصهم, وكذلك في تتبعه للأخبار والروايات.

·يشيرُ بوضوحٍ إلى الزمن الذي سيدرسُ في إطارِه الأدبَ، وكذلك يشيرُ إلى المساحة المكانية.

·اختار ما جاد من النصوص الأدبية مع عدم التفضيل بينها تقدّما أو تأخّراً, وعدم تفسير الغامض منها غالباً, مستأنساً في ذلك كله بآراء النقاد المهرة, متتبّعاً المعاني الحسنة ذاكراً السابق إليها.

·اهتمَّ بالسياق التاريخي للأخبار التي يوردها, سواءٌ الأخبار التاريخية التي تخصُّ الأحداث

92 **المصدر نفسه**, ق3/مج1/ص410

93 **المصدر نفسه**, ق3/مج1/ص413

التي وقعت حينها, أم الآثار الأدبية التي أوردها ضمن سياقها التاريخي, ولعله اعتمد في أكثر نقوله على (التاريخ الكبير) لأبي حيان.

·كان يحتفلُ بورودِ ألوان البديع عند الأدباء, كلما رأى معنىً ما أجاد فيه صاحبُه, أو قصّر عنه مقارنةً مع غيره من الأدباء, ولاسيما أدباء المشرق, ولذلك كان يعتني بصنعة الأندلسيين الفنية في هذا الباب.

·كان يقدّم النثر على الشعر في عرضه للنصوص الأدبية, وكانت طريقة عرضه للرسائل مختلفة من رسالة إلى أخرى.

المصادر والمراجع

1. ابن بسام الشنتريني, علي أبو الحسن (ت 542هـ), **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**, تحقيق الدكتور إحسان عباس, دار الثقافة, بيروت 1997م.
2. ابن جني, عثمان (ت 392هـ), **الخصائص**, تحقيق: محمد علي النجار, دار الهدى, ط2, بيروت.
3. ابن خلكان, أحمد بن محمد بن أبي بكر, وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان, تحقيق إحسان عباس, دار صادر بيروت.
4. ابن درّاج القسطلي, أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى, **ديوانه**, حققه وعلق عليه وقدّمه الدكتور محمود علي مكّي, منشورات المكتب الإسلامي بدمشق, ط1, 1961م.
5. ابن سعيد المغربي, علي بن موسى أبو الحسن (ت 685هـ), المغرب في حلى المغرب, تحقيق الدكتور شوق ضيف, دار المعارف, ط3, القاهرة1955.
6. ابن سعيد المغربي, علي بن موسى أبو الحسن (ت 685هـ), رايات المبرزين وغايات المميّزين, تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية, دار طلاس, دمشق 1978.
7. ابن محمد, علي, **ابن بسام الأندلسي وكتابه الذخيرة دراسة في حياة الرجل وأهمّ جوانب الكتاب**, المؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر 1989م, ودار الغرب الإسلامي, بيروت.
8. امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث, **ديوانه**, تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم, دار المعارف, ط5, القاهرة.
9. البحتري, الوليد بن عبيد بن يحيى التنوخي الطائي, **ديوانه**, تحقيق حسن كامل الصيرفي, منشورات دار المعارف, ط3, القاهرة.
10. البرقوقي, عبد الرحمن, **مجلة الرسالة**, القاهرة, سنة 1936, عدد 138.

11. الجاحظ, عمرو بن بحر أبو عثمان (ت255هـ), **البيان والتبيين**, تحقيق: عبد السلام هارون, مكتبة الخانجي,ط7,القاهرة 1998م.
12. الجرجاني, عبد القاهر (ت 474هـ), **دلائل الإعجاز**, قرأهُ وعلّق عليه: محمود محمد شاكر, مطبعة المدني بالقاهرة, و دار المدني بجدة.
13. الزركلي, خيرالدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس, الأعلام, ط15, دار العلم للملايين, 2002م.
14. زهير بن أبي سلمى, **ديوانه**, بشرح الأعلم الشنتمري, تحقيق علي حسن فاعور, دار الكتب العلمية, ط1, بيروت 1988م.
15. الشريف الرضي, محمد بن الحسين بن موسى, **ديوانه**, دار صادر, ودار بيروت, 1961م.
16. ضيف, شوقي, الفن ومذاهبه في الشعر العربي, 1960م.
17. ضيف, شوقي, **تاريخ الأدب العربي, عصر الدول والإمارات, الأندلس**, دار المعارف, القاهرة.
18. طرفة بن العبد, **ديوانه**, بشرح الأعلم الشنتمري, تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقّال, إدارة الثقافة والفنون بالبحرين, المؤسسة العربية ببيروت, ط2, 2000م.
19. عبد الرحيم, مصطفى عليان, تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري, مؤسسة الرسالة, بيروت1984م.
20. العشماوي, محمد زكي, **قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث**, دار النهضة العربية, بيروت 1979م.
21. كحالة, عمر, معجم المؤلفين, دار إحياء التراث العربي, مكتبة المثنى, بيروت.
22. المعري, أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي, أبو العلاء, **سقط الزند**, دار بيروت للطباعة والنشر, دار صادر, بيروت 1957م.
23. المقّري التلمساني, أحمد بن محمد, **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**, تحقيق إحسان عباس, دار صادر, بيروت1968.
24. مكي, الطاهر احمد, **دراسة في مصادر الأدب**, دار الفكر العربي, ط8, القاهرة 1999م.
25. النابغة الذبياني, زياد بن معاوية بن ضباب, **ديوانه**, تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم, دار المعارف, ط2, القاهرة.
26. ياقوت الحموي الرومي, معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب, تحقيق إحسان عباس, دار الغرب الإسلامي, بيروت 1993.